**محاضرات في مقياس ابستومولوجيا العلوم الاجتماعية/ دروس توجيهية تابع:**

**السنة الثانية ليسانس**

**الأستاذ: زازوي موفق**

**قسم العلوم الاجتماعية**

**شعبة الأنثروبولوجيا**

المحاضرة الثالثة: علم النفس

تمهيد: هو أحد العلم الإنسانية المقصود بهذه العلوم ، تلك العلوم التي تتخذ الإنسان كموضوع للبحث .و هو ذلك العلم الذي يهتم بالحياة النفسية لهذا الكائن الحي المعقد.و دراسة الإنسان تعد من أشد الكائنات تعقيد، لتعقد أبعاده و لامتلاكه الوعي و الإرادة الحرية في الفعل.

فإذا كان علم الاجتماع يتناول الإنسان من الناحية الاجتماعية و علم التاريخ يتناوله من الناحية التاريخية أي في بعدة الماضي التاريخي الاقتصاد من الزاوية المعاشية....فان علم النفس يدرسه ككائن يعيش حادث نفسية.

- موضوع علم النفس يتمثل في دراسة الحوادث النفسية كالخوف و الألم و الغضب و الفرح و التخيل...

- طبيعة الحادثة النفسية: تصدر عن الإنسان ككل فه الوحيد الذي يعيشها.

و هي تختلف عن الظاهرة الطبيعية فهذه الأخيرة لا تحركها الإرادة هي تتكرر عدة مرات دون أن تفقد من طبيعتها.

أما الحادثة النفسية تغمرها الحيوية بدون انقطاع و أنها ذاتية و موضوعية.

\* قلنا سابقا إن طبيعة الموضوع هي التي تفرض المنهج

إذن كيف يمكن أن نفهم هذه الحادثة النفسية؟

إن المنهج الذي يعمل به علم النفس مستوحى من طبيعة الموضوع الذي يهتم بدراسته. و لما كانت الحادثة النفسية ذات مظهرين داخلي و خارجي فكان لا بد أن يعتمد علم النفس على منهجين.

1/- المنهج الاستبطاني: أو ما يعرف بالتأمل الباطني يعتبر قديما و هو منهج مفاده تحليل الإنسان لحادثته النفسية أثناء وقوعها . لذلك يعرف على أنه انعكاس الشعور على النفس بغية التعرف على ما فيها من أحوال نفسية. بحيث يلجا الفرد إلى وصف ما يجري في نفسه من هذه الأحوال. انه يقوم على إدراك الذات لذاتها و خدمة إغراض علمية. انه يقوم على إدراك الذات لذاتها بحيث ينقلب الشخص فيه إلى ملاحظ و ملاحظ أي إلى دارس و مدروس. وظلت هذه الطريقة سائدة أمدا طويلا مدعمة بدعوى وحدة الطبيعة البشرية متجاهلة الفروق الفردية في الطبيعة البشرية هذه. و كانت قبل أن يستقل علم النفس بذاته متبعة من طرف بعض المفكرين أمثال مونتاني و ديكارت و بسكال. لكن لم تلبث أن انكشف قصورها من نواحي عدة

ولما كان هذا المنهج مستحيلا و لما كان الإنسان غاضبا مثلا أثناء الحالة النفسية. فكر علماء النفس في انتقاد هذا المنهج و أصبح الاستبطان استرجاعا هذا ما يدعى ب:Introspection أي بعد إراحة الإنسان يطالب منه أن يصف حالات الغضب التي كان يعيشها. أي العودة إلى الذاكرة أي إلى ما يتذكره الإنسان من حالات نفسية عاشها الإنسان.

إن التحليل الذاتي بالمعنى الدقيق للكلمة، عملية عسيرة جدا إن لم تكن أمرا مستحيلا.فكيف يمكن تحليل الحوادث النفسية و هي لا تنقطع عن الديمومة؟ فأنا لا أستطيع دراسة أو ملاحظة حالتي الهيجانية في الوقت الذي أكون منفعلا .لان مجرد التفكير فيها و هي تنتابني من شأنه أن يخفف من حدته ولهذا يوصف التحليل الذاتي بأنه تحليل استرجاعي :INTROSPECTION RETROPECTIVE

و عملية الاسترجاع هذه ليست أبدا إعادة صادقة للماضي.إنما إعادة تنظيم الماضي بشكل جديد.فاقد للحرارة الأصلية في الأغلب.ثم إن هذه الطريقة لا يمكن تطبيقها إلى على الذي يحسن إلى حد ما الإفصاح عن نفسه .

و بالرغم من المحاولات التي قام بها العلماء لإصلاح هذه الطريقة إلا أنه يمكن القول أنها بقيت محدودة و لا تؤدي إلا إلى نتائج ذاتية.

نقد و مناقشة:

إن هذه الطريقة من شأنها أن تؤدي الى نتائج ذاتية لأن الإنسان لا يمكنه الإفصاح عن كل ما يجول في داخله من أحال نفسية فقد يحتفظ ببعضها لنفسه.

ان هذه الطريقة لا يمكن تطبيقها على الأطفال و المجانين لأنه تعتمد على اللغة

اللغة ذاتية لأننا نتفاوت في امتلاك اللغة.

إن هذه الطريقة تعتمد على الذاكرة و نحن نعلم إن الذاكرة ليست أمينة أو وفية في استرجاع الماضي بدقة فالذاكرة كما قيل خير لها أن تكون نساءة.

**نص للاستعانة به في نقد الاستبطان:**

**نقد الاستبطان: لأوغست كونت**: و هو مؤسس المدرسة الوضعية التي تستبعد الشعور و كل ما هو باطني لأنه يعتبر من الضلالات الميتافيزيقية.

يقول: يلاحظ انه لا مكان بأي وجه من الوجوه لعلم النفس الوهمي هذا الذي هو آخر تحول للهوة و الذي يراد عبثا بعثه اليوم من جديد و الذي من دون أن يكترث لا بالدراسة الفيزيولوجية لأعضائنا الذهنية لا بملاحظة الطرق المنطقية التي توجه بالفعل مختلف أبحاثنا العلمية إذ يدعي التوصل إلى الكشف عن قوانين الفكر البشري الأساسية بتأمله هو في ذاته أي بإهمال كل من الأسباب و النتائج إهمالا كليا.

إن رجحان الفلسفة الوضعية قد أصبح على التوالي هكذا ابتداء من بيكون فأصبح لها اليم بطريقة غير مباشرة نفذ كبير جدا حتى على ألئك الذين أبقوا أبعد الناس عن نمها الضخم، بحيث أن الميتافيزيائيين المنكبين على دراسة ذهننا لم يستطيعوا أن يأملا التخفيف من انحطاط علمهم المزعوم إلا عندما رجعا عن رأيهم ليعرضوا مذاهبهم على أنها هي أيضا قائمة على ملاحظة الحوادث. من أجل ذلك فقد فكروا في المدة الأخيرة في التمييز بضرب من المحاكمة الغريبة بين نوعين من الملاحظة متساويين في الأهمية، أحداهما خارجية و الأخرى داخلية الأخيرة منها مخصصة لدراسة الظواهر الذهنية فقط. و ليس هنا محل الدخول في مناقشة خاصة بهذه السفسطة الأساسية. و علي أن اقتصر على الإشارة إلى الاعتبار الرئيسي الذي يثبت بوضوح أن هذا التأمل المباشر المزعوم الذي يقوم به الذهن على ذاته هو مجرد وهم.

..... و من البين في الحقيقة أن الذهن البشري بمقتضى ضرورة لا مرد لها يقوم بالملاحظة؟

إننا نتصور بالنسبة إلى الظواهر الأخلاقية إن الإنسان يستطيع إن يلاحظ نفسه بنفسه من جهة الأهواء التي تحركه، لهذا السبب التشريحي و هو أن الأعضاء المخصصة لوظائف الملاحظة. و علاوة على ذلك فحتى ل تمكن أحد من القيام بمثل هذه الملاحظات على نفسه، فلن تكون لها من دون شك أهمية علمية كبيرة ابد ، و تكون أفضل وسيلة لمعرفة الأهواء . هي ملاحظتها من الخارج.إذ أن كل حالة من أحوال الهوى الشديدة الظهور أي على وجه الدقة. الحالة التي يتعين فحصها أكثر عن غيرها، هي بالضرورة متنافية مع حالة الملاحظة. أما ملاحظة الظواهر الذهنية بنفس الطريقة أثناء حدوثها فذلك أمر ظاهر الاستحالة، فالفرد المفكر لا يمكنه أن ينشطر شطرين احدهم يفكر و الآخر يشاهد التفكير، بما أن العضو الملاحظ و العضو الملاحظ متماثلان في هذه الحالة فكيف يمكن أن تكن هناك ملاحظة؟

\* إذن فهذه الطريقة النفسانية المزعومة باطلة من أساسها أصلا... انتهى نص اوغست كونت

2/- الطريقة الموضوعية: /المنهج الموضوعي

إن علماء النفس الكلاسيكيون أنفسهم لم يتجاهلوا نقص الاستبطان ضعف مهمته. فحالوا الإعراض عنه بالملاحظة الخارجية أي بملاحظة الغير. هذا من جهة و من جهة أخرى ، إن الفروض التي ينطلق منها العقليون المتطرفون التي بمقتضاها يعتبر الكائن البشري نوعا من العقل الخالص، جاء الوقت لتتنازل و تترك المكان لتصور أكثر تفتحا منهاج يقف على سلوك الغير من الناحية الموضوعية الخارجية. و هذا المنهاج يشبه المناهج المعروفة في العلوم الطبيعية إذ يقوم على دراسة، قوامها الملاحظة الظاهرية أو التجربة التي تضبطها داخل المخابر، آلات خاصة. من هنا يمكن التمييز بين سلسلتين من الطرائق:

1/- الأولى هي مجرد امتداد للملاحظة و هي المستعملة في السيكولوجيا التكوينية من أجل دراسة المراحل التي يجتازها الكائن الحي في نموه العضوي و النفسي و الاجتماعي. هي طرائق تجمع ما بين التحليل التركيب. على أنها في ذلك لا تحلل عناصر و لا تركب بين عناصر. إنها تتناول وحدات منظمة منذ البداية و تزداد تنظيما باطراد النمو. و هذه الطرائق معمول بها في علم نفس الحيوان الطفل و المراهق و علم النفس المرضي و علم النفس الرجل البدائي.

أما دراسة الحيوان فقد سمحت بقيام المدرسة السلوكية و ازدهارها، فأوحىت بمقارنة السلوك الحيواني بالسلوك الإنساني. و ملاحظة الطفل ساعدت كثيرا على معرفة اللغة و نمو الذكاء و نشوء الأنا. و معرفة الأمراض التي يقول عنها فرويد أنها ترجع في أصلها إلى الطفولة، أفادت العلماء في التعرف على نشوء كثير من الوظائف النفسية و نموها و تكاملها بالمقارنة مع سلوك الراشد. ولقد صححت الأبحاث النفسية المختصة بالأقوام البدائية بعض الأفكار الخاطئة الشائعة حول الحياة البدائية و أثبتت بأن المجتمعات البدائية لا تختلف أبدا من حيث الطبيعة عن الشعوب المتحضرة. إنما التفاوت في درجة التحضر فقط.أم علم النفس الباثولوجي أو المرضي، فقد ألقى أضواء على الحالات الشاذة، انعكست أصداؤها في المجال الطبي المجال السيكولوجي المحض.

-2/- أما السلسلة الثانية، فتحي السائل التجريبية كالمخابر الرائز أ الاختبارات من أجل قياس الذكاء كذلك الآلات، بعضها خاص بعلم النفس بعضها الآخر مشترك بينه بين الفيزيولوجيا و علم الاجتماع، وهي آلات يسخرها علم النفس لضبط بعض الحوادث النفسية ضبطا كميا كالمتعبة لضبط التعب و المنبضة لقياس النبض و المسمع لاختبار السمع .... آلات أخرى لقيا حركات الإحساس و الدوران و الشم و غيرها. وهكذا استطاع علم النفس أن يدرس سلوك الإنسان بصورة موضوعية كما يتمثل بالفعل في ظواهره النفسية و ظواهره المجسدة.

توصل إلى قوانين كمية أهمها قانون فيختر القائل بأن الإحساس يساوي لوغاريتم المؤثر ، و قانون بييرون القائل بأن النسيان يزداد بصورة مناسبة مع قوة لوغاريتم الزمن. إلا أن هذه القانين لا تخل من التعسف فهي عبارة عن تعميمات أكثر منها قوانين ثابتة بحيث ينتفي الاستثناء الشذوذ. هكذا فان الحادث الشعورية و غير الشعورية تنعكس في سلك المرء الخارجي. فإذا اقبل احد السلكيين على دراسة الذاكرة انصرف عن البحث فيها كوظيفة نفسية إلى ملاحظة الطريقة التي تؤدي بها وظيفتها في الظاهر أي كما يتعلم المرء و يتذكر.

و المنهج الموضوعي سمي كذلك لدراسته الظاهرة من ناحيتها الخارجية.فالخوف مثلا أو الغضب علامات خارجية تدل على وجوده.

يعتبر العلم الروسي الفيزيولوجي بافلوف أول عالم نبه علماء النفس إلى إدخال المنهج التجريبي في علم النفس و على الأخص واطسن . لقد استغل هذا الأخير بهذه المحاولة المنهجية لمعرفة الصبيان في ردود أفعالهم .

- الصبي يخاف من الصوت المزعج مثلا

- الصبي لا يخاف من بعض الكائنات الحية- الفأر مثلا

1- الفار.......... الصبي------ لا يخاف

2- الفأر......+ صوت مزعج--------- خوف بعد التكرار لعدة مرات

قام بحذف الصوت المزعج

3- الفأر------- الصبي......... يخاف

بهذا وصل إلى ملاحظة و هي يجب اعتبار الشعور ظاهرة إضافية لأنها لا تفيد العلماء. فلا بد إذن من الاعتماد على السلوك. أما ما وراءه فهو ضرب من الخيال.

استطاع واطسون أن يقيم مدرسة و هي المدرسة السلوكية التي أعطت دفعا كبيرا إلى علم النفس نحو الدراسات الموضوعية الأمر الذي أدى إلى ظهور مدارس أخرى إلى جانب المدرسة السلوكية كالمدرسة الشكلانية او الغشطلتية و المدرسة الظواهرية التي جمعت بين السلوكية و الاستبطان إلى جانب مدرسة التحليل النفسي.

نقد المدرسة السلكية / المنهج الموضوعي

لا ينكر احد ان لهذا المنهج فظلا كبيرا بالسير بعلم النفس نحو الموضوعية أكثر فاكثر بحيث نجح لحد كبير في تخليصه من الأوهام و الشكوك و الصيغ الذاتية و مع ذلك فانه لا يخلو من عيوب.

- إن هذه الطريقة أهملت عنصرا جوهريا هاما في دراسة الحادثة النفسية هي الشعور

- و هل كل ما لا ينعكس في السلوك يعتبر وهما؟ أو ظاهرة إضافية ثانية؟

- هل السلوك الذي يتناوله الدارس يعبر بكل صدق دقة عن الحادثة النفسية.

- إن واطسون ينظر إلى السلوك نظرة آلية

- ثم إن الناس أمام منبه واحد يصدرون سلوكات مختلفة . و لا يخفون قصور هذا السلوك.

- هذه الطريقة رغم الايجابيات الموجودة فيها تبقى محدودة. فالسلوك الظاهر كثيرا ما يخدعنا. لان المظاهر خداعة. فالممثل كثيرا ما يخدعنا بأدواره التمثيلية. و لذلك لمعرفة الظاهرة النفسية على حقيقتها ينبغي الجمع بين المنهجين

**و هي المدرسة التحليلية أو ما تعرف بمدرسة التحليل النفسي** مع سيغموند فرويد فهو ينطلق من السلوك نحو الأعماق.

الجديد في هذه المدرسة هو انه لم يكتف بالإصغاء الواعي للشخص و بتحليل سلوكه الموضوعي .بل يتجه أيضا نحو عالم غامض يجهله الشخص نفسه و هو عالم اللاشعور.

**سؤال:**

**هل يمكن دراسة الظاهرة النفسية دراسة علمية موضوعية؟**

**تمهيد:**

1- إن استقلال العلوم الإنسانية بصفة عامة و علم النفس بصفة خاصة عن الفلسفة كان هدفه بحث هذا الأخير عن المشروعية العلمية من خلال إضفاء الطابع العلمي على ظواهره متخذا في ذلك العلوم التجريبية مثله النموذجي. و ذلك بعد النقلة النوعية التي حققتها هذه العلوم بفعل إخضاع ظواهرها للمنهج التجريبي. هذا ما آمنت به النزعة الوضعية.

لكن اختلاف طبيعة الظاهرة النفسية عن طبيعة ظواهر العلوم التجريبية يعيق برأي النزعة الروحانية- الاستبطان- الدراسة العلمية للظواهر السيكولوجية و يحول دون دراستها دراسة علمية دقيقة.

و بذلك يمكننا طرح التساؤل التالي:

هل يمكن إخضاع الظواهر السيكولوجية للمنهج التجريبي من ثمة دراستها دراسة علمية دقيقة بالرغم من ظواهرها المعقدة؟

2- الفريق الأول- صاحب النزعة الروحانية- يرى استحالة إخضاع الظاهر النفسية إخضاعا صارما للمنهج التجريبي بالتالي استحالة دراستها دراسة علمية دقيقة تفضي إلى اكتشاف العلاقات الثابتة التي تحكمها من ثمة التحكم فيها .

من الحجج المعتمدة:

- إن طبيعة الظاهرة النفسية طرح جملة من العوائق التي تعيق دراستها دراسة علمية

- الظاهرة النفسية ظاهرة متداخلة و معقدة تتداخل فيها مختلف الأنشطة الفكرية والوظائف السيكولجية من إحساس و إدراك و تذكر و تخيل و إرادة ... تتداخل فيها المحددات الثقافية الاجتماعية و الاقتصادية السياسية التاريخية.مما يصعب من عملية الوقوف على الثابت المتغير في إحداث الظاهرة. و يحل في النهاية الوصول إلى العلاقات الثابتة التي تكون وراء مثل هذه الظواهر.

- الظاهرة النفسية ظاهرة كيفية تعبر عنها بلغة الصف الأمر الذي يضفي عليها طابع المعارف العامية يجعلها بعيدة في ذلك عن اللغة الكمية هي لغة العلم.إذ يقال لا علم إلا بالقياس أي بالكم.كالتعبير عن القوانين في معادلات رياضية لكن الظاهرة النفسية يعبر عنها بكلمات أو ألفاظ : كغير سوي ، منفعل ،هيجان، توتر...

- إن اكبر عائق يعيق الدراسة العلمية للظاهرة السيكولوجية، مشكلة الذاتية.كون الإنسان يكن هو ذاته دارس مدرس فتتداخل بذالك ميولاته و عواطفه و نزواته و أحكامه الخاصة و اديولوجيته مما يضفي عليها الذاتية التي تبعده عن الحقيقة العلمية. يقول بياجي: إن وضعية علوم الإنسان أشدها تعقيدا لكن الذات التي تلاحظ أو تجرب على نفسها أو على الذوات الأخرى المماثلة لها قد يلحقها تغيير مصدره الظواهر التي تتم ملاحظتها من جهة.كما يمكن أن تكون الذات من جهة أخرى مصدر تغييرات في مجرى هذه الظواهر...إن في مثل هذه الوضعية تتداخل فيها الذات العارفة بموضوع المعرفة و هي من الصعوبات التي تعرفها علوم الإنسان مقارنة مع العلوم الطبيعية.

-كون الظاهرة النفسية ظاهرة إنسانية فهي تتميز بالوعي و بالإرادة و الحرية. الأمر الذي يجعلها تنفلت من قبضة الحتمية التي هي مبدأ علمية الظواهر. فبمجرد انتفاء مبدأ الحتمية من أي ظاهرة تنتفي معها خصوصيات الدراسة العلمية لتلك الظاهرة. فمن الصعب مثلا أن نحدد شرطا موضوعية محددة لظاهرة الإحباط.فشروطه تتغير بتغير الظروف المحيطة بصاحبه.

مناقشة: لكن أليس واقع الأبحاث العلمية في الظواهر النفسية يقلل من قيمة ما ذهبت إليه النزعة الروحانية و يؤكد أن هذه العوائق تم تجاوزها و أصبحت من الماضي؟

3- الظواهر النفسية ظواهر شيئية يمكن دراستها دراسة علمية دقيقة هذا ما تذهب إليه النزعة الوضعية.

- إن نتائج الدراسات و الأبحاث العلمية في مجال الظاهر السيكولوجية يؤكد على إن المنهج التجريبي في هذه الأخيرة يطبق كما يطبق في ظاهر العلم التجريبية.كتجارب العالم واطسون الذي اعتبر علم النفس فرعا من فروع العلوم الطبيعية.

يقول: إن علم النفس كما يرى السلوكي فرع موضوعي و تجريبي محض من فروع علوم الطبيعة.هدفه النظري التنبؤ بالسلوك وضبطه.

- دخل المنهج التجريبي إلى مجال علم النفس أدى إلى إعادة قراءة الظواهر النفسية. إذ لم يعد النظر إليها كظواهر باطنية شعورية خفية،بقدر ما أصبح ينظر إليها كظواهر خارجية موضوعية شأنها في ذلك شأن الظواهر العلمية-طبيعية- بيولوجية- تنعكس كآثار فيزيولوجية لها قابلية الملاحظة و الافتراض و التجربة.وصولا إلى العلاقات الثابتة التي تحكمها القوانين العلمية.كقانون فيختر القائل: الإحساس يساوي لوغاريتم المؤثر. وقانون بيرون الذي مفاده النسيان يزداد بصرة متناسبة مع قوة لوغاريتم الزمن.

مناقشة: إن المقارنة العلمية تؤكد على أن الحقائق النفسية تظل أقل دقة وضبطا مقارنة بحقائق العلوم المادية و هو ما يعني أن الدراسة العلمية في الظواهر النفسية تبقى تتميز بالنسبية و المحدودية.

4- الدراسة العلمية في الظواهر السيكولوجية مقارنة بالعلوم الطبيعية تبقى نسبية

- إن تعدد مدارس علم النفس و تعدد مناهجها- المنهج الاستبطاني والمنهج السلوكي ومنهج التحليل النفسي و المنهج ألارتباطي ... يؤكد ما حققه علم النفس من علمنه لظواهره بلغة وصفية انفعالية في أغلب الأحيان.أصبح اليوم يتحدث عن التعليل و التنبؤ بالسلوك و ترييض حقائقه.كأن يصاغ الذكاء في قانون رياضي: الذكاء يساوي العمر العقلي مضرب في 100 على العمر الزمني. لكن رغم ما حققه علم النفس من علمنة تبقى هذه العلمنة أقل مما هي عليه في ظواهر العلوم التجريبية.سواء من حيث التعليل أو القياس أو التنبؤ.وذلك نتيجة لتلك العوائق و الصعبات التي تطرحها الظاهرة النفسية في وجه الدراسة العلمية لها.

- يمكن القول إن استقلالية علم النفس عن الفلسفة من جهة و الثورة المنهجية التي حققها من جهة ثانية. كانت وراء تلك القفزة العلمية النوعية التي وصلت إليها الحقيقة في مجال الظواهر السلوكية.حيث أصبحنا اليوم نتحدث عن قوانين في علم النفس. و عن ثرة في علم النفس على شاكلة ثورة كبرنيكوس الفلكية و غيرها من الانجازات. لكن تبقى طبيعة هذه القوانين و استثماراتها في السلوك الإنساني و طبيعة تنبؤاتها و طبيعة ثوراتها تختلف عن مثيلاتها في العلوم المادية. فهي أقل منها دقة و ضبطا و قيمة، و هو ما يعني برأيينا أن الدراسة العلمية للظواهر السيكولوجية لم تصل بعد الى صورتها النهائية الدقيقة.

- ما يمكن استنتاجه في الأخير أن الظواهر النفسية و استطاعت أن تتخلص من الطابع الميتافيزيقي الذي ظل يلازمها في تفسير ظواهرها لزمن طويل بفعل أخذه بالمنهج التجريبي الذي مكنها من تفسير ظواهرها تفسيرا علميا و تعليلها و التنبؤ بها بعدما صيغت قوانينها في شكل قوانين علمية.إلا أنه رغم ذلك تبقى هذه القوانين تميزها الاستثناءات مقارنة بمثيلاتها في ظاهر العلوم التجريبية و هو ما يعني أن الدراسة العلمية في الظواهر السيكولوجية لم تصل بعد إلى صورتها النهائية،و هي الدقة و الضبط.